المباراة في الاستعداد للحرب

لم تبطل الحرب من الدنيا في عصر من العصور ولكنها قلّت كثيراً في العصور المتأخرة ولاسيما في القرن الماضي بعد معركة ورترلو التي قضى فيها على نبوليون بونابرت . فلم يحدث فيه بعدها من الحروب الكبيرة الا حرب الثورة الهندية وحرب القرم وحرب تحرير العبيد باميركا وحرب السبعين بين الفرنسويين والالمان وحرب الدولة العلية والروس . هذه هي الحروب الكبرى التي قتل فيها الالوف من الرجال وضاعت فيها بحرات الاموال . وحدثت فيه حروب اخرى اصغر منها كحرب الجزائر وحرب بروسيا والنمسا وحرب اسبركا واسبانيا وحروب السودان وما اشبه ومع ذلك كان الشعور العام ان الميل الى السلم يزيد عاماً بعد عام والناس جارون في اعمالهم مطمئنين كأن الحروب مضى زمانها وانقضى . ولكن الدول لم تشارك رعاياها في هذا الاطمئنان ولاسيما دول اوربا فاستمرّت على التسليح والتجهيز والاكثار من المعدات الحربية وهي تقول الاستعداد للحرب انفى لها الى ان كانت حرب طرابلس الغرب وحرب البلقان فجيشتها هذه الدول على قدر طاقتها فخمدت نارها من غير ان تضطرم بها حرب اوربية عامة

ولكن الاستعداد لهذه الحرب بقي على ساق وقدم وظلت الدول تزيد نفقاتها الحربية وتكثر من الجنود واليوارج الى ان حملت رعاياها احمالاً ثقيلة تحتها

وقد حاول فضلاء الاوربيين منذ اكثر من عشر سنوات ان يوفقوا بين مصالح الدول المختلفة ويحملوها على فصل ما يقع بينها من الخصومات بالتحكيم فنجحوا بعض النجاح ولكن بقيت في اوربا دولة فاقت غيرها في الاستعداد للحرب وهي الدولة الالمانية فاضطرّت جاراتها الى مجاراتها . هل كان غرضها الاحتفاظ بمقامها والاكتفاء بما عندها او الطموح الى ما عند غيرها هذه مسألة تختلف الآراء فيها باختلاف الناظرين اليها واميالهم ولكن لا خلاف في ان المانيا فاقت غيرها في التأهب للحرب . ومن رأي بعض العلماء ان تفوقها هذا هو الذي اضرم نار الحرب في اوربا وان الغاية التي ترمي اليها الدول المقاومة لها هي القضاء على هذا التفوق الحربي وتوطيد اركان السلم في الدنيا وانها كانت تقصد ان تصل الى ذلك باتفاق ودي مع المانيا من غير حرب ولكن خاب مسعاها ومن هؤلاء العلماء جماعة من اساتذة جامعة اكسفرد وقد الفوا كتاباً موضوعه « لماذا نحارب » وعقدوا فيه فصلاً في تاريخ المحالفات والاستعداد للحرب ذهبوا فيه ان عقد المحالفة الثلاثية بين المانيا والنمسا وايطاليا اضطر فرنسا الى عقد

المحالفة مع روسيا واضطرانكلترا الى التقرب منها . والاعتراض الوحيد على عقد المحالفة الثلاثية من حيث مصالح سائر الدول ان هذه المحالفة قوّت الدول الثلاث وجعلت لمن الكلمة العليا في اوربا شرقاً وغرباً وحملت المانيا على مباراة انكلترا بحراً ومناظرتها في التجارة والاستعمار كأنها تهددها في البحر كما تهدد جاراتها في البر فاضطرتها الى زيادة الانفاق على بحريتها كما اضطرّت فرنسا وروسيا الى زيادة الانفاق على جيوشها

ثم فصّل هؤلاء الاساتذة هذا البيان الموجز فقالوا ما خلاصتهُ :— ان معاهدة الصلح بين فرنسا والمانيا التي عقدت في فرنكفورت في ١٠ مايو سنة ١٨٧١ الزمت فرنسا بان تقبل مطالب المانيا وفتحت باباً جديداً لسياسة اوربية جديدة فانها مكنت المانيا من التفرّق في غربي اوربا . واتفق ان قام فيها رجل اسمهُ بزمرك عُلّم الالمان ان خير البشر متوقف على تقوّيهم وعلى علومهم وعقولهم فطمع مريدوهُ في توسيع الامبراطورية الالمانية حتى تشمل المسكونة كلها ورأوا انهُ لا يتسنّى لهم ذلك ما لم يسحقوا اولاً سلطة فرنسا وانكلترا . لكن الحكومة الالمانية لم تتخذ هذا المذهب قاعدة لاعمالها الاّ بعد سنة ١٨٩٠ حينما اقيل بسمارك من منصبهِ لانهُ كان مضادّاً لهُ ومكتفياً بتقوية الامبراطورية الالمانية في بلادها وزرع بذور الشقاق بين اعدائها سواء كانوا مجاهرين بعداوتها او كانت توجس فيهم العداوة . ففي سنة ١٨٧٢ تقرّب من روسيا والنمسا الامبراطورين الكبيرتين في شرق اوربا فتألّف من ذلك اتحاد الامبراطرة الثلاثة Dreikaiserbündis وكان الغرض منهُ الاحتفاظ بالحالة الحاضرة حينئذٍ ولكن صداقة روسيا فترت سريعاً ثم انقطعت لما تصدّى القيصر اسكندر الثاني سنة ١٨٧٥ لالمانيا ومنعها من محاربة فرنسا . ثم زاد التقرب بين المانيا والنمسا لان مصالحها متفقة في المسألة الشرقية فان النمسا كانت تحسب سياسة روسيا في البلقان مضرّة بها والمانيا لم تكن تودّ ضعف النمسا حينئذٍ فزاد الالتحام بين المانيا والنمسا سنة ١٨٧٩ وعقدتا محالفة بقيت سرية الى سنة ١٨٨٧ وكانت دفاعية محضة ويظهر من بنودها ان الدولتين كانتا تضمران العداء لروسيا وتوجسان منها شرّاً . وارتبطت كل منهما بمساعدة الاخرى اذا اعتدت عليها روسيا او دولة اخرى انتصاراً لروسيا . وسنة ١٨٨٢ انضمت ايطاليا الى المانيا والنمسا كأنها شعرت انها لا تستطيع ان تأمن على نفسها ولا ان تتوسع في الاستعمار ما دامت منفردة

وقد دام هذا الاتحاد الثلاثي الى الآن وكان لهُ الشأن الاعظم في سياسة اوربا مع قلة انتفاع ايطاليا منهُ وانحصار نفعهِ في المانيا والنمسا وجعلهما اقوى خصم لايطاليا في بحر

الادرياتيك . وبقيت ممالك اوربا كما اراد بسمارك منفصلة بعضها عن بعض مع ان انكلترا كانت مصادقة لفرنسا واشتركت مع روسيا في منع اعتداء المانيا عليها سنة ١٨٧٥ لان احتلال انكلترا لمصر ساء فرنسا وتقدم روسيا في آسيا جعل انكلترا توجس منها شرًّا ولكن كان لهذه الدول الثلاث مصالح اخرى مشتركة افضت بها الى توثيق عرى التآلف بينها . نعم انها لم تعقد محالفة دفاعية لكنها اتفقت في امور كثيرة جوهرية

ثم ان سياسة المانيا كانت ترمي الى تعزيز قوتها الحربية حتى تخيف بها كل الدول التي يمكن ان تتفق على مناوأتها وقد ابتدأت في ذلك حين أقيل البرنس بسمارك من منصبه فانهُ كان يخطب ود روسيا دائمًا حتى بعد سنة ١٨٨٢ وقد حالف روسيا محالفة دفاع ضد النمسا . نعم انهُ قوّى الجيش الالماني ولكنهُ اشار على المانيا باتخاذ خطة الدفاع دائمًا وحذَّر مجلس النواب الالماني من كل محالفة يقصد بها الهجوم والدفاع معًا وهاك ما قالهُ لهُ في هذا الصدد

« اذا قلت لكم ان فرنسا وروسيا تهددانا فالاجدر بنا ان نحاربهما حالاً لان الحرب الدفاعية اصلح لنا » ثم طلبت منكم اعتماد مئة مليون جنيه فلا ادري هل تسمحون بها . ارجو ان لا تسمحوا »

ولكن بسمارك اقيل سنة ١٨٩٠ فانتقلت دفة الحكومة الى ايدٍ اقل احتراسًا من يديهِ فاهملت المحالفة الدفاعية مع روسيا وتمكن الخلاف بينهما ورأت المانيا نفسها تجاه المحالفة الثنائية محالفة روسيا وفرنسا التي ابتدأت بالتقرب البسيط سنة ١٨٩١ وانتهت بمحالفة فعلية سنة ١٨٩٦ ولا شبهة ان هذه المحالفة وقَتْ فرنسا من الاعتداء على تخومها الشرقية وكانت معرضة لهُ منذ سنة ١٨٧٥ ولم يقم دليل على ان فرنسا استخدمتها للاضرار بغيرها ولم تبسُط فرنسا الأَكفّ الاستعمار وفي هذا لم يشكُ منها اعضاء المحالفة الثلاثية انها اعتدت على حقوقهم المشروعة في مناطق نفوذهم فان املاكها الواسعة في غرب افريقية اعترفت لها بها المانيا وانكلترا بمعاهدات وامتلكت جزيرة مدغشكر في شرق افريقية ولم تنازعها في امتلاكها دولة اوربية . وتوسُّعها في الصين الهندية لم تطمَعْ بهِ الاَّ على املاك انكلترا وقد فُصِل الخلاف بينهما حبًّا سنة ١٨٩٦ . ووقعت المناظرة بينها وبين المانيا في غرب افريقية في تخوم الكميرون وتوغولند ولكن المانيا لم تدَّعِ ان ما فعلتهُ فرنسا موجب للحرب وغنيٌّ عن البيان ان الالمان نظروا الى توسع فرنسا في افريقية بعين الغيرة وقد قالت المانيا قبيل نشوب هذه الحرب انها تحجم عن اخذ مستعمرات فرنسا اذا حاربتها . وحتى ذلك الوقت كانت بريطانيا تعتقد ان المانيا تحارب فرنسا قصد سلبها مستعمراتها ولكن ظهر من سياسة المانيا في الايام

الاخيرة ما اقنعها انها كانت مخطئة في اعتقادها. وكان المظنون حتى سنة ١٩١٤ ان اقصى ما تطمح اليهِ المانيا هو التوسع في السياسة التي اتَّبعتها حديثاً اي طلب التعويض من الدول التي تفلح في توسيع املاكها ضمن دائرة نفوذها. وليس من غرضنا الآن ان نمدح تقسيم افريقية ونحامي عنهُ او نذمهُ ونبين عيوبهُ وانما غرضنا ان نذكر الاساليب التي استعملتها المانيا لارهاب فرنسا في هذا الباب. واول شيء فعلتهُ من هذا القبيل كان متعلقاً باتفاق انكلترا وفرنسا على المغرب الاقصى لان هذا الاتفاق دلَّ على ان الدولتين تميلان الى ما يزيد على التوادّ العادي ولما تمَّ هذا الاتفاق قال البرنس بولوف في مجلس النواب ان المانيا لا تعترض عليهِ لانهُ لا يمس مصالحها. ولكن المانيا لم تمض ان ندمت هذا الاتفاق ماسَّاً بمصالحها وبكرامتها ايضاً. وفي العام التالي (سنة ١٩٠٥) زار امبراطورها طنجة وقال فيها علانية ان غرضهُ تعزيز التجارة الالمانية والصناعة الالمانية في المغرب الاقصى وانهُ لا يسمح لدولة من الدول ان تدخل بينهُ وبين سلطان المغرب. ثم قالت الصحف الالمانية ان المانيا لا تعترض على الاتفاق الانكليزي الفرنسوي بالذات ولكنها تعترض على انكلترا وفرنسا لانهما لم تستشيراها قبلما عقدتاهُ. فقابلت فرنسا هذا الاعتراض باستقالة المسيو دلكاسه وزير خارجيتها وبقبولها عقد مؤتمر الجزيرة

وقال وزير المانيا حينئذٍ ان مصالح المانيا وسياستها وشرفها اضطرتها للتعرض للاتفاق الانكليزي الفرنسوي مع انهُ قال قبلاً ان هذا الاتفاق لا يضر بمصالح المانيا ثم قال بعد المؤتمر ان لا اعتراض لهُ على نصيب بريطانيا من هذا الاتفاق ولا على ما تمَّ بينها وبين فرنسا من التقرُّب. ولكن الرأي الشائع حينئذٍ كان ان المانيا ارادت ان تفهم عود انكلترا وفرنسا وترى مقدار اتفاقهما او ان ترى فرنسا ان اعتمادها على انكلترا كالتوكوء على قصبة مرضوضة

لما رأت انكلترا ذلك من المانيا اوجست منها شرًّا وجعلت تخلص من المشاكل التي بينها وبين سائر الدول وكانت قد بذلت جهدها سنة ١٩٠٥ في حمل اليابان على تخفيف شروط الصلح مع روسيا فعرفت لها روسيا هذا الفضل واتفقت معها اتفاقاً وديًّا سنة ١٩٠٧ على المسائل المختلف فيها في بلاد ايران وافغانستان وتبت. ولكن الاتفاقين مع فرنسا ومع روسيا كانا خاصَّين متعلقين باماكن محدودة ولا علاقة لها بالسياسة الاوربية العامة. نعم ان انكلترا صارت اميل الى ترك العزلة التي كانت تباهي بها ولكنها لم تكن قد صممت على محالفة غيرها من الدول ولو قصد الدفاع لكن المانيا اضطرتها سنة ١٩١١ الى زيادة التقرب من فرنسا بارسالها سفينة من سفنها لاحتلال ثغر في المغرب الاقصى قصد اثارة الخصام بينها وبين فرنسا فكانت النتيجة ان انكلترا هددتها بانها تنضم الى فرنسا ان هي اصرَّت على احتلال

ذلك الثغر واثارت الحرب على فرنسا . وما من احد ارتاب حينئذٍ ان انكلترا كانت مصممة على الدخول في حرب لا بد لها فيها . فلما رأت المانيا منها ذلك اتحدت واشتد الوئام بين فرنسا وانكلترا وتبادلت الحكومتان مكاتبات رسمية اثبت ذلك لكنها لا تقيد الواحدة بالاشتراك مع الاخرى في الحرب الاَّ اذا كانت هذه معتدًى عليها واتفقت الدولتان معًا على مقاومة المعتدي . ولم يكن غرض انكلترا من هذا الاتفاق ان تتوسل به الى محاربة المانيا بدليل انهُ لما نشبت حرب البلقان وطلبت السرب ان تضم اليها البانيا ونصرتها روسيا وقاومتها النمسا اهتمت انكلترا بالتوفيق بين المتخالفين . ولو كانت تبطن العداء لالمانيا لوسَّعت الخرق او لوقفت جانبًا على الاقل

ثم انها أكدت لفرنسا انها تنتصرها اذا حاربتها المانيا لكنها بذلت جهدها في استئصال اسباب الخلاف وارضت النمسا . وقد اشار الى ذلك وزير الامبراطورية الالمانية في ٧ ابريل سنة ١٩١٣ في مجلس النواب الالماني حيث قال « ان اوربا مدينونة لوزير خارجية انكلترا على مقدرته الفائقة واهتمامه الشديد في التوفيق بين المتخالفين فاستطاع ان يتغلب على المصاعب ولولا ذلك لنشبت الحرب بين النمسا وروسيا » الى ان قال « وعلى كل حال نحن لا نثير حربًا مثل هذه » وما اسرع ما اخلف وعدهُ

ولعلَّ فرنسا هي التي غرست جرثومة هذه الحرب بيد الجنرال بولنجه فانهُ اقنعها بزيادة جيشها زمن السلم وجعلهُ ٥٠٠٠٠٠٠ حينما كان جيش المانيا وقت السلم ٤٢٨٠٠٠ فقط وجيش روسيا ٥٥٠٠٠٠٠ فقابلهُ بسمارك بزيادة ٤١٠٠٠ الى الجيش الالماني سبع سنوات ولم يتمكن من ذلك الاَّ بعد حل مجلس النواب وانتخاب مجلس آخر . ولا بد من ان تكون فرنسا قد ندمت على ما فعلت لقلة شعبها . وبقي الشعب الالماني مصرًّا على عدم مجاراة فرنسا لان انكلترا كبريتي لم يتمكن من جعل الجيش ٤٧٩٠٠٠ الاَّ بمشقة كبيرة وجعل مدة الخدمة الاجبارية سنتين بدلاً من ثلاث . وبلغ عدد الجيش الالماني وقت السلم ٤٩٧٠٠٠ سنة ١٨٩٩ و ٥٥٥٠٠٠ سنة ١٩٠٥ وبقي الجيش الفرنسوي حينئذٍ اكثر من الجيش الالماني ولكنهُ لم يبلغ ٥٤٥٠٠٠ وقت السلم و ٤٠٠٠٠٠٠ وقت الحرب حتى بلغ الجيش الالماني ٨٠٠٠٠٠ وقت السلم و ٥٤٠٠٠٠٠ وقت الحرب . ولا غرابة في ذلك لان الشعب الالماني اكثر جدًّا من الشعب الفرنسوي وكان ذلك من اقوى الاسباب لعقد المخالفة بين فرنسا وروسيا لكي لا تبقى فرنسا منفردة امام المانيا . وقد كانت هذه المخالفة قذًى في عيني المانيا وهي السبب الاكبر الذي جعلها تنقم على فرنسا لانها اوجست منها شرًّا . ثم جعلت

تزيد نفقاتها الحربية فبلغتها سنة ١٩٠٩ الى ٤٠ مليون جنيه بعد ان كانت ٢٧ مليوناً ورضيت بضم البوسنه والهرسك الى النمسا تجري روسيا انها اذا بادأت النمسا بالعداء فهي (اي المانيا) تنتصر لها فاضطرت روسيا ان تحجم ولكن الرجح انها لم تنتظر ما حدث

وسنة ١٩١٣ زادت المانيا جيشها وقت السلم الى ٨٧٠٠٠٠ وافتدت بها فرنسا وروسيا وبلجكا . اما النمسا فاقتصرت على زيادة نفقاتها البحرية فدل ذلك كلهُ على ان النار مخبوءة تحت الرماد ولا بد من اضطرامها يوماً ما . وتدعي المانيا ان اللوم في زيادة الجيوش على روسيا لانها هي البادئة فيها لكن روسيا تحتج بسعة بلادها وبانها مضطرة ان تحمي ١٧٣ مليوناً من النفوس وبلادها معرضة للهجوم من ثلاث جهات واما المانيا فلا تحمي الاَّ ٦٥ مليوناً من النفوس وبلادها معرضة للهجوم من جهتين

هذا من جهة الجيوش البرية اما الاساطيل البحرية فكانت بريطانيا تحسب انها اقوى فيها من كل دولتين يمكن ان تتفقا عليها ولم تكن تحسب انها تخوض غمار حرب برية لتستعد لها ولا كانت تحسب حساباً في البحر الاَّ لفرنسا وروسيا . ثم اخذت المانيا سنة ١٨٩٨ تقوي اسطولها فلم تلتفت انكلترا على ذلك لاتساع متاجرها ومستعمراتها يستلزم ان يكون لها اسطول كبير يحميها

وسنة ١٩٠٠ عدلت المانيا بغتةً عن الخطة التي كانت قد وضعتها لنفسها وهي ان تزيد اسطولها تدريجاً فضاعفت مقدار الزيادة التي كانت قد قررتها قبلاً فاعتقدت انكلترا انها هي المقصودة بهذه الزيادة لاسيما وانها كانت مشتبكة بالحرب مع البوير وان الحزب البحري الالماني كان يجاهر بالعداء لها . وكان الحزب الحر الانكليزي ميالاً الى الاقتصاد في انشاء السفن الحربية فقلل ما انشأهُ منها من سنة ١٩٠٦ الى ١٩٠٨ ولكن المانيا لم تجارهُ في ذلك بل زادت ما كانت عازمة على انشائهِ واتضح لانكلترا حينئذٍ انها اذا بقيت جارية هذا الجرى هي والمانيا هي تقلل ما تنشئهُ من البوارج الكبيرة والمانيا تزيد ما تنشئهُ منها لم تأت سنة ١٩١٤ حتى تصير بوارج المانيا الكبيرة اكثر من بوارج انكلترا فعادت الى الاكثار من بناء البوارج وغيرها من السفن الحربية وقال رئيس وزرائها حينئذٍ اننا نأسف لوقوع هذه المباراة بيننا وبين المانيا وليس غرضنا منها العداء للمانيا ولكننا لا نستطيع ان ندع تفوقنا البحري يزول لان سلامتنا كلها متوقفة عليهِ (١٦ مارس ١٩٠٩) . فاكثرت انكلترا من بناء البوارج الكبيرة (الدرد نوط) حتى تزيد بوارجها دائماً على بوارج المانيا ستين في المئة

لكن المانيا لم تحجم عن المباراة فزادت نفقاتها البحرية سنة ١٩١٢ مليون جنيه في السنة وصرّحت انكلترا حينئذٍ ان كل زيادة تزيدها المانيا تزيد هي مضاعفها وكل نقص تنقصهُ تعني تنقص مضاعفهُ حتى تبقى النسبة محفوظة بين اسطوليها ولم يثنِ ذلك عزم المانيا فزادت نفقاتها البحرية سنة ١٩١٣ نصف مليون جنيه عن سنة ١٩١٢

والخلاصة ان المانيا قصدت التفوّق برًّا وبحرًا لا لمجرّد التفوق بل لاستخدامهِ في توسيع الاملاك والمستعمرات ولو بأخذ ما في يد الغير ويترتب على ذلك اما ان ترضخ الدول لارادتها واما ان تحاربها وترقفها عند حدودها

المآخذ الشعرية

قال عمرو بن شاس الاسدي :

اذا نحنُ ادلجنا وأنت امامنا كفى لمطايانا بوجهك هاديا

فتناهبهُ الشعراء : فقال مروان بن ابي حفصة الاكبر يصف الركاب :

يكون لها نور الامام محمدٍ دليلاً بهِ تسري اذا الليل اظلما

وقال حفيدهُ ابو السمط بن ابي حفصة :

فتًى لا يبالي المدلجون بنورهِ الى بابهِ أن لا تضيءَ الكواكبُ

وقال ادريس بن ابي حفصة وذكر ابلاً وزاد عليهِ :

لها امامك نور تستضيء بهِ ومن رجائك في اعناقها حادي

وقال القطامي :

ذكرتكمُ ليلاً فنوّر ذكركم دجى الليل حتى انجاب عنهُ دياجرُه

ويتصل بهِ قول ابي الطخان العبثي :

اضاءت لهم احسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظّم الجزع ثاقبهُ

وقال الحطيئة :

تثني على ضوء احسابٍ أضأنَ لنا كما أضاءت نجوم الليل للساري

وقال ايضًا :

همُ القومُ الذين إذا أُلمّت من الايام مظلمةٌ أضاؤوا

ولبعض المتقدمين :

اذا اشرقت في جنح ليل وجوههم كفوا خابط الظلماء فقد المصابح